١

طريد القدر

مهما تراجعتُ مطوىّ عمرى ، لأنبئك متى عرفت طريفاً وانى خادنته فلن أذكر الا أننا كنا توأمين لا يختلفان ؛ وعشيرين لا يفترقان ؛ نلعب معا فى مدارج القرية ؛ ومنعطفاتها ، وفى أوديتها ورباها . وأنه كان بكر أبويه ؛ اسمر اللون ، أسود العينين ، متفوقا على وعلى الأتراب فى الكتّاب . تفوقا لم تعهد القرية له مثيلا . وأنه ما كاد يختم المصحف الشريف ، ويشرع فى تعلم الخط والحساب ، حتى غيّب الدهر عن عينيه صور الكائنات بحجاب أبدي من الظلام ؛ فغادر الكتّاب ولكن اليأس والأسى لم يغادرا قلب أبويه ، فانقلب حبهما له ؛ وزهوهما به تلهفا ورفقا يذوبان فيستحيلان دموعا . . .

وكأن هذه الفاجعة الأليمة ، ما أرهقت ذلك الوليد ولا أوصدت دونه بهجة الطفولة ؛ وأفراح الوجود ، فلم

ينقض على موت عينيه ردح من الزمن ، حتى عاجلت المنون أباه ، فانتزعت من أسرته عونها الأوحد ، وحرمته الى الأبد عطفه وحنانه ، وما كادت لواعج اليتم تهدأ فى عينيه ، حتى شيع الى وحشة الرمس تباعا ثلاثا من شقيقاته الأربع ، وشقيقه ، فأقفر ذلك البيت الذى كان يشع بهجة وأنسا ، وباتت والدته الأيم الثكلى تبكى زوجا فى شرخ الشباب ، وأطفالا فى بسمة الحياة ، تناديهم كلما آن وقت مجيئهم كأنهم لا يزالون أحياء ، وكأنها ترقب عودتهم بعودة رفاقهم وأترابهم .

وما أن لجأت أشلاء أسرته ، على أثر هذه الفواجع الوجيعة الى قرية أخواله ، حتى زَفَّ الى أرمل غريب الدار أمه ، وصحبها مع شقيقته الباقية الى منزل زوجها الجديد ، غصيصا ، قريح القلب ، مهيض الجناح ، ليظلل بكنف ضرّ والده ، بل ليفجع هنالك بأمه ، ويرتد الى مسقط رأسه طريد القدر ، شريداً يتخبط وحده غريبا فى لجج الحياة الصاخبة ، وغياهبها المتجهمة لا أم تحنو عليه ، ولا أب

يرأف به ولا أخ يشد عضده، ولا جد يحميه، ولا عم ينصره، ولا عمة تعطف عليه ولا بيت يؤويه ولا مال يسعفه، ولا عين تهديه سواء السبيل . . .

لا ريب فى أن بعض هذه النوائب لو نزلت على أقسى الأنام فؤادا، لفتت كبده ولأرغمته على اليأس من الحياة والنقمة عليها، فكيف بها وقد انصبت كلها على صبى مرهف الحس، رقيق العواطف لما يخبر الحياة ونوازلها . .

غير أن العقل مهما ارتقى وتفنن فى التعرف الى الطبيعة . واستجلاء غوامضها فلن يتفهم النفس البشرية ويعلم يقيناً ما يطبع فيها الحدثان من أثر، فكم من الخلق من تبدل مجرى حياته من جراء عارض يسير، وكم منهم من تنكر له الدهر، فلم يبدل منه شيئاً . ولعل طريفاً أبلغ مثال لما قدمت، فان الخطوب المتتابعة وان أترعت مرارة الحياة جنانه، فانها لم تصرعه ولم تدفعه الى اليأس، فظل لعوباً مراحاً، يشارك أترابه عبثهم وشجارهم، ذلك الشجار الذى يقع عادة

بين ولدان مختلف الأحياء ويتخذ شكل غارات منظمة يتبادل خلالها الفريقان الحجارة تراشقاً باليد حيناً وحيناً بالمقلاع . والغريب أن طريفاً كان دائماً من قادة تلك الغارات الليلية ومنظميها ، وفي طليعة المغيرين من أبناء حيه ، وأغرب من ذلك انه لم يكن يضرب الضربة الا بعد أن يمهد لها سبيل الاصابة ، شاتما من يستهدف من غرمائه بصوت رفيع حتى اذا رد عليه وتبين مقره أطلق الحجر من مقلاعه صوب مصدر الصوت : يخطىء الهدف مرة ويصيبه أخرى .

وقد ظل طريف مستطلعا المعرفة ، يتلمسها ويسعى اليها أنى كانت ، في المنازل ، والحوانيت ، ويحفظ من القصاصين فصولا من عنترة ، وسيف بن ذي يزن ، وبني هلال ، وما اليها ، من قصص متداولة في القرية . غير أن تلك القصص لم ترو ظمأه ، فكان يتلهف دائما الى الكتاب ، ويتألم بمرارة كلما سمع رفاقه يتحدثون عنه ، أو يذهبون اليه . وكثيراً ما كان يمر بجانبه حتى يذكى بأصوات

التلاميذ ، وجلبتهم الحسرة فى نفسه . فلما جاء القرية شيخ من أهلها المغتربين ، وأنشأ كتابا يقبل العمى والمبصرين ، على مثال كتاتيب المدن،سارع الى الالتحاق به، كماسارعت فعدنا نتتلمذعلى شيخ واحد . وماهي غير أيام ، حتى استرعى بجده واجتهاده انتباه الشيخ ونال إعجابه ، فأقبل عليه يحفظه القرآن الكريم برغبة ، واندفع طريف يستظهره بشوق ، فقلت له ذات صباح قبل وصول الشيخ ،وهو على مرحه الدائم كأن شيئا من المصائب المتعاقبة عليه لم يمسه : « ويحك ياطريف . كيف تستطيع مشاطرتنا جد الحياة ولهوها ، بل كيف تطيق الوجود ، وقد زوى الدهر عنك أفانين الحياة، فحرمك وجه الأرض ، والسماء ، وما فيهما ، من ألوان وضياء ، كما حرمك عطف أبويك وأشقائك، ومافى همس حركتهم ، وجرس وجودهم من بهجة ونعيم . . فوالله لو نابنى بعض ما دهاك ، لآثرت الموت على الحياة ، ولأفنيت العمر شاكيا يائسا ، لا ألوى من الدنيا على شىء . فأشاح عنى بوجهه ، وقد امتقع لونه وانطوى على نفسه

كأن حديثي بعث فيها شجىً دفينا ، ثم التفت الى يتمم عن لوعة دامعة ، ما أشك في أنه لو استطاع الافصاح عنها آنئذ كلاما لقال : « أتعلم يا صديقي انك آلمتني وجرحت عواطفي ، ذلك بأني ما ذكرت أبي ولا أمي ، ولا اخوتي ، إلا تيتمت من جديد ، وما ذكرت ألوان الطبيعة ولا ضياء النجوم ، الا عميت من جديد ، فبالله عليك لا تيتمني يا صديقي ولا تعمني بعد اليوم ، وتحاش دائما ان تسأل مصابا عن مصابه ، أو أن تشير اليه ولو تلميحا بالحديث ، إذ ان ذلك يوقظ كامن الحزن في نفسه كما أيقظت اليتم والعمى الكامنين في أعماق قلبي ».

قلت : « عفواً ياطريف ، أنت إذاً يائس مكلوم ، وما البهجة المتألقة في وجهك الا سراب وراءه اليباب ».

فتبدلت قليلا قسمات وجهه ، وقال : « آهٍ لك يا صديقي ! أمن أهل التشاؤم أنا حتى يظل اليباب في صدري من جراء ما لا سبيل الى رده . أين صبري وجلدي ؟ أم أين ايماني بالحياة وحقي عليها ؟ ان فعلت كما يفعل أولئك القوم كلما

داعبهم القدر مداعبة خشنة ، فاجدفت وجدّفت ورحت أتطاول مثلهم على الأرض والسماء ، أهز اللوح باحتجاجي والفلك بآهاتي ، وتنهداتي ، انى لأحزن ويتوجع قلبي بين الفينة والفينة أكثر مما يحزنون ويتوجعون . بيد انى لا أيأس من الحياة ، ولا أنقم عليها إذ أن اليأس من الحياة والنقمة عليها كفر بمشيئة الخالق ، وحرمة الوجود ، كفر بعزائم الانسان ومواهبه ، كفر بأجدادنا الغر الذين بخفقة من الايمان ملكوا الدنيوين ومالوا بالزمان ، كفر بنفسي ، وطموحي والأمل . ولعلك لا تريد لي الكفر بجميع هذه القيم ، وقد منّ الله علىّ بقلب يسع العوالم حباً وتحنانا ، وشعور يدرك همس النفوس والأشياء ، وما دون ذلك مقالا ، وخيال يمتد الى ما وراء الكون فيدنى منى المحال . ولا يغرب عنك أن جمال الأشياء ليس في أن تراها عيناك ولكن فى أن يتحسس ما وراءها جنانك ، وتناجيه عواطفك ، وأن التحسس والمناجاة ليسا وليدى العين والأبصار ، بل وليدى الحس والخيال ، فمن كان مرهف

الحس منطلق الخيال أدرك جمال الوجود،وانعكس اشعاعه على نفسه ؛ ومن لم يكن كذلك ، كان غريبا عن الحياة ، ولو كانت له ألف عين وعين .

فأنا وان لم أبصر بعينيّ ألوان الطبيعة ولا ضياء النجوم فانى أبصر بقلبي وحسى وخيالى ما وراء هاتيك المظاهر ، فاذا كان الليل سمعت الكون الصامت يناجى ضميرى ، ويغمرنى برهبةالوجود ، واذا كان النهار تنسمت عبق الطبيعة وأنفاس الكائنات ، فامتلأت نفسى روعة وسحراً يسكران فؤادى وكل جوارحى . وثق ، بأنى ما أصغيت الى ظاهرة من ظاهرات الكون ولا أقبلت على أمر من أمور الحياة ، الا كنت طرباً جذلاناً كأنى فى نشوة دائمة ، وسكر مستمر أو كأن الحياة نفسها سكرى بين جوانحى نشوانة فى مشاعرى وعواطفى .

كان طريف يتكلم بحماسة هادئة ، وكان حديثه العذب يصعد من أعماق قلبه فينساب الى قلبى ويُشيع فيه

الروعة والاعجاب ، وكان يخيل إلىّ وأنا أصغى اليه أن سلكا كهربائيا يصل فمه بعينى ، ومسمعى ، فلم أحول عنه ناظرى ولم أحرك شفتى خشية ان أقطع عليه حديثه . . .

غير أن الشيخ قطعه بخفق نعليه . . .